الحاكم والمحكوم

فى ظل النظام الديمقراطى

للأستاذ على حسنين الزير

كانت الصلة بين الحاكم والمحكوم مسألة المسائل منذ القدم ، وهى كذلك مسألة المسائل الى اليوم . . درجت مع التاريخ تتطور بتطور أحداثه وتقلباته ، وتخضع لكل عصر فى اتجاهاته ونزعاته ، وتقوم فى كل شعب على مايساير تقاليده وعاداته . . . فقد قامت هذه الصلة فى فجر التاريخ على الاستبداد والطغيان ، فكان أبرز مظاهرها القوة وحب السلطان ، وكانت الجماعة المحكومة بحكم هذه الصلة لاتجد نفسها الا عند التسليم والاذعان ، تفقد شخصيتها فى رغبة الحاكم وارادته ، ويتلاشى صوتها فى صوت مطامعه وأنانيته . فهى مسلوبة الشخصية والارادة ، ليس لها أى حق ولكن عليها كل الواجبات . حتى اذا تطورت الجماعة البشرية بدأت تبحث عن نفسها وتدافع عن كيانها ، وتحرص على أن تجد شخصيتها فيما يربطها بالحاكم الذى يتصرف فى شؤونها ، فهدأها التفكير على ضوء التجارب الى ابتداع كثير من نظم الحكم ، لايعنينا منها الآن سوى النظام النيابى الذى تقوم على أساسه خير الصلات بين الحاكم والمحكوم ، والذى يسترشد الحاكم فى ضوئه بما يجب أن يأخذ به ويؤديه للأفراد والجماعات ، متنكبا الظلم والجور ، متجنبا الفساد والشر ، فكان الأخذ بهذا النظام بشير خير للانسانية ، وطريق اصلاح للمجتمع ، وبداية حرب على الاستبداد وأنانية الطغيان .

لم تصل الجماعة البشرية الى هذه النتيجة الطيبة فى يسر وسهولة ، وانما بلغتها بعد منازعات قاسية وثورات دامية بذلت فيها الأمم ما بذلت من الجهود ، وقدمت من أجلها ما قدمت من التضحيات . وعلى الرغم من دول ماعانت فى هذا السبيل ، أصرت على الفوز بحقها وعلى أن تكون هى مصدر السلطة على نفسها ، وصاحبة الرغبة فى اختيار من يتولى أمرها .

واذا قلنا إن الحكم النيابى ، أعنى حكم الديمقراطية ، هو تراث الانسانية وثمرة جهودها وجهادها على مدى التاريخ ، فنحن لانبالغ فى الحق ولا نعدو الصدق . وما نريد هنا أن نسرد وقائع التاريخ أو نعدد الأمثلة والشواهد ، فقد كانت حوادث التاريخ فى ذلك وما زالت تقطر بالدم ، ولا تكاد تخلو من ذلك سيرة أمة من الأمم ، بل ولا جماعة من الجماعات .

ويعرف أكثرنا أن اليونان قد سبقت فى فجر التاريخ الى الأخذ بهذا النظام فى الحكم، وإقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على وضع ديمقراطى يمثل فيه صوت الشعب ورغبته. جرى هذا فى نطاق محدود يلائم روح ذلك العصر. فليس من شك فى أن الديمقراطية التى عرفت قديما فى أثينا تخالف الديمقراطية العصرية الى حد بعيد. ثم تطور الضمير الانسانى وامتد احساس الأفراد والأمم فى فهم الديمقراطية وتقرير الحق لكل شخص مهما كانت طبقته أو مهنته. ولا بد هنا من الاشارة الى حقيقة صادقة ناطقة لم يغفلها التاريخ ولا يستطيع أن يجحدها إنسان، وهى ما قرره الاسلام من توسيع مدى الحكم الديمقراطى، وإقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على رغبة الشعب واحترام إرادة الأمة، فقد جعل المبايعة أصلا من أصول الحكم، وجعل كلمة الجماعة هى العليا، منها يستمد الحاكم قوته وسلطته. ولقد كانت أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم تولى الخلافة بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أن وقف فى المهاجرين والأنصار فقال "أيها الناس: لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حق فأيدونى، وإن رأيتمونى على باطل فقوموني، أطيعونى ما أطعت الله فيكم".

ومن بعده ضرب الخليفة عمر بن الخطاب أروع المثل فى إقامة الصلة بين الحاكم والمحكوم على أمثل قواعد الديمقراطية، وأبلغ ما ينشده الناس من العناية والرعاية، حتى لقب بأول حاكم ديمقراطى، وإنه لجدير بهذا اللقب. فقد كان رضى الله عنه يقضى ليله ساهرا يتسمع لأنة مكلوم أو لنفثة مظلوم، ويسعى بنفسه لعيادة كل مريض، ويحمل الطعام بين يديه الى كل جائع، ويحدب على الجميع حدب الأب على أبنائه، ويرى نفسه فى الرعية رب أسرة، تقوم الصلة بينه وبين أعضائها على المحبة الصادقة والمودة الخالصة والألفة الكريمة.. وإنما أشرت الى هذا المعنى لأنه المذهب الذى تسعى اليه الديمقراطية اليوم، والغاية التى تنشدها الانسانية فيما يجب أن تكون عليه الصلة بين الحاكم والمحكوم، فقد أصبح مفهوما أن الحكم لم يعد مظهر سطوة وإمارة، ولم يعد شعار الحاكم انتفاخ الأوداج والحديث بالايماء والاشارة.. أجل، لم يعد هذا كله مما يصح فى أوضاع الحكم، ومما يحتمله وجدان الانسانية، بل لقد أصبح الحكم مسئولية خطيرة وتبعة ثقيلة يحتملها الحاكم أمانة هى محل الضمير والشرف فى رعاية المحكومين والانصاف بينهم، وإقامة العدل فيهم، وتدبير الرفاهية لهم، والوفاء بكل مطلب من مطالبهم — يسعى اليهم فى هدا قبل أن يسعوا اليه، ويتلمس هذا فيهم قبل أن يرفع للعرض عليه — فهو بإحساسه واحد منهم، وهو بعطفه راع لهم، وهو باهتمامه بكل فرد يعتبر بحق حاكما عليهم.

إن حياة الأمم والشعوب قد أصبحت متشعبة النواحى والاتجاهات، معقدة الميول والنزعات، متشابكة الأغراض والرغبات، فليس يكفى فى تدبيرها والملائمة بينها أن يجلس

الحاكم وراء مكتبه ، يضع الحلول لذلك على الورق ، معتقدا أنها مسألة حسابية تقدر بالأرقام واضافة الأصفار . . كلا ، وانما يكون لتدبير لذلك بالمخالطة والمعاشرة ، والنزول إلى طوائف الشعب وأفراد الأمة ، للوقوف على ما يرجون من رغبات ، وما ينشدون من غايات ، وما يسيطر على عواطفهم ومعاشرهم من نزعات . . يتلمس ذلك كله فى إشاراتهم وأصواتهم ، وحركاتهم ، وفيما يبدو من المعالم والمظاهر على وجوههم .

لهذا كان من أول الواجبات على الحاكم أن يرحل الى الفلاح فى قريته ، وأن ينتقل الى العامل فى مصنعه ، وأن يسير فى عرض الطريق ، يختلط بكل هيئة وجماعة ، وأن يفتح باب مكتبه لكل فرد وطائفة ، فيجد نفسه بينهم ويجدهم جميعا من حوله ، وهو وهم قوة متعاونة للصلحة العامة ، وخير الوطن .

هذه ولاشك حقيقة ظاهرة ، وأحسب أن الحرب القائمة زادتها وضوحا فى الأذهان ، ومثلها أصدق تمثيل للعيان . فقد رأينا كيف كانت الأمة البريطانية وهى أعرق الأمم الديمقراطية — رأينا كيف كانت تستمد القوة فى أحرج المواقف من المستر تشرشل رئيس وزرائها ، وكيف كان ذلك السياسى العظيم ، وهو من هو فى رفعة المنصب وقوة الشخصية ، يرى من واجبه أن يقف فى صفوف الشعب لمواجهة الشدائد ، بل لقد كان ، وهو الشيخ المسن ، يستقل الطائرة الى أبعد الجهات غير عابىء بما يصيب صحته من التلف ، وغير مستجيب لرغبة الأطباء فى الاعتكاف والاقتصاد فى العمل وبذل الجهد . وبهذا استطاع فى أدق الظروف وأقساها أن يحفظ الروح المعنوية فى أمته قوية فياضة ، بل بهذا عرف كيف يحفظ الروح المعنوية قوية فياضة فى نفوس كل من يضمهم التاج البريطانى ومحبيه .

لست أتحدث عن هذا الوضع فى الصلة بين الحاكم والمحكوم على أنه شىء مثالى ، بل على أنه حقيقة واقعة أصبحت قبلة الشعوب ورغبة الأمم فيمن يتولى أمرها ويأخذ بمقاليدها . . ولذلك اتسعت الفكرة الديمقراطية فى الحكم النيابى ، وأصبحت الأمة هى مصدر السلطات وصاحبة الإرادة فى تمثيل رغبتها . وإذا كنا نستمع الى أصوات الأمم الديمقراطية ترتفع فى الوقت الحاضر مطالبة بتحقيق الحريات الأربع ، واحترام حق كل فرد فى المجتمع ، فليس هذا من المغالاة والإسراف فى شىء ، بل إنه لصوت الانسانية ووجهتها ، ورغبة الشعوب وغايتها ، وهو دعامة الحضارة والعلم والأدب والفن ، وكل ضروب المعرفة التى أيقظت المشاعر ، وأنضجت الضمائر . وليس من شك فى أن الانسانية اليوم قد أرهف احساسها حتى أصبحت تضيق بألم الفرد ، وتفزع لشكواه ، وهى التى كانت فى الأمس من البداوة بحيث لا تتحرك لأعنف مآسى الظلم والبطش فى الجماعات .

فإذا كان الشر فى بعض الأحيان يأتى بالخير ، فإن خير ما تمخضت عنه الحرب القائمة هو احترام رغبات الأمم وحقوق الأفراد ، وأن يكون الحاكم خادما للشعب ساهرا عليه ، جاهدا فى تدبير مصالحه . . أو بتعبير جامع ، أن يكون دائما عند رغبة الشعب الذى اختاره وأولاه ثقته .

ونحن هنا فى مصر أشد الأمم حاجة الى الأخذ بهذا السبيل ، مادمنا نرغب فى مسايرة التطور العالمى ، وما دمنا نود السير قدما فى موكب الأمم الناهضة .

ومما يزيد فى الغبطة أن الأمة المصرية قد نضج تفكيرها وإدراكها فى فهم هذه الحقيقة والتشبث بها ، بل والإصرار عليها . ولن نجد أحدا يعترض على هذا الشعور القوى عند الأمة ، لأنه بهذا يسىء الى نفسه والى مواطنيه . .

على حسنين الزير